﴿إِنَّمَا يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدٗا وَسَبَّحُواْ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ۩ ١٥﴾ [السجدة: 15]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بـيـانُ صفات المؤمنين

لمّا تحدَّثت الآياتُ السّابقة عن المُجرمين وأحوالهم والجزاء المُعدِّ لهم؛ ذكر في هذه الآية المؤمنين وبعضَ أوصافهم منَ الخشوع والتَّسبيح والحمد والتَّواضع.

ومنَ المُناسبة أيضًا أنَّه لمّا ذكر في الآيات السّابقة أنَّ الحامل للمُجرمين على الكفر وإنكار البعث الكبرَ؛ ذكر في هذه الآية علامةَ أهل الإيمان بأنَّهم بادروا إلى إظهار التَّذلُّل والخضوع لله ربِّ العالمين، بأن يخرُّوا لله سُجَّدًا تعظيمًا له وإقرارًا بالعبوديَّة له وحدَه.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿خَرُّواْ﴾: (خرّ) أصلٌ واحدٌ، وهُو اضطِرابٌ وسقوطٌ مع صوتٍ[1]. (خرَّ الرَّجلُ يخُرُّ) إذا سقَط بضمِّ الخاء، و(يخِرُّ) بكسرِ الخاء[2]، و(خرَّ) بمعنى: هَوَى من عُلوٍ إلى سُفلٍ، و(خرَّ لوجهِه يخرُّ خرًّا وخُرورًا): وقع كذلك، وفي التَّنزيل: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ﴾ [الإسراء: 109]، وقوله: ﴿خَرُّواْ سُجَّدٗا﴾، فاستعمال الخرِّ تنبيهٌ على اجتماع أمرين: السُّقوطِ، وحصولِ الصَّوت منهم بالتَّسبيح[3]، والمعنى المحوريُّ: هُويُّ الشَّيء بقوَّةٍ، كالماء المُشتدِّ الجرْيِ لانحِدارِه عادةً[4].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

بـعـضُ صفات المؤمنين

في هذه الآية الكريمة ذكرٌ لبعض أوصاف المُؤمنين؛ لأنَّ صفاتِهم

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خر).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (خرر).
(3) الراغب، المفردات: (خرر).
(4) ابن سيده، المحكم: (خرر).

عديدةٌ، فهم الذين إذا ذُكِّروا بالآيات خرُّوا ساجدين، وسبَّحوا وحمدوا ربَّهم؛ فقالوا: سبحان الله والحمد لله، مع ظهورِ تواضُعِهم، فهم لا يستكبرون عن عبادته بقلوبهم.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نكتةُ فصل الآية عن سابقتِها:

التَّباينُ التّامُّ بين طائفتَي الإيمان والكفر

فُصِلَ قولُه: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ عمّا قبله؛ لأنَّه استئنافٌ مَسوقٌ لتقرير عدمِ استحقاقِهم لإيتاءِ الهدى، والإشعارِ بعدم إيمانِهم لو أوتوه بتعيين مَن يستحقُّه بطريق القصر، كأنَّه قيلَ: إنَّكم لا تُؤمنون بآياتنا الدّالَّة على شؤوننا، ولا تعملون بمُوجبِها عملًا صالحًا ولو أرجعناكم إلى الدُّنيا[1].

وممّا يُذكر في سبب الفصل أنَّ الآية الكريمة استئنافٌ ناشئٌ عن قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُۚ﴾ [السجدة: 3] الآية، فبعد أن أنحى بالتَّقريع والوعيد للكافرين على كُفرهم بلقاء الله، بما أفادت اسميَّةُ جملةِ: ﴿بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَـٰفِرُونَ ۝١٠﴾ [السجدة: 10] دلَّ ذلك على أنَّهم ثابتون على الكفر بلقاء الله دائمون عليه، وهو ممّا أنذرَتْهم به آياتُ القرآن، فالتَّكذيبُ بلقاء الله تكذيبٌ بما جاء به القرآن فهم لا يُؤمنون، وإنَّما يُؤمنُ بآياتِ الله الذين ذُكرت أوصافُهم هنا[2].

بلاغةُ القصر بـ ﴿إِنَّمَا﴾:

الخضوعُ لله في مُقابلة الكفر والتَّكبُّر

تظهر بلاغة القصر في بدء الآية بقوله: ﴿إِنَّمَا﴾، وفي هذا دليل على تخصيص طائفةٍ تُؤمن بالله وما جاء به رسلُه، وتُبعِدُ أهلَ الكفر عن طريق الإيمان بالقصر، وهو قصرٌ إضافيٌّ؛ أي: يُؤمن بآيات الله الذين إذا ذُكِّروا بها لم يتريَّثوا عن إظهار الخضوع له، دونَ الذين قالوا: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۢ﴾ [السجدة: 10]؟[3].

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 84، والآلوسي، روح المعاني: 21/ 130.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 227.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 227.

ويدلُّ القصر هنا على تيئيس الرَّسول ﷺ من إيمانهم، مع التَّعريض بهم بأنَّهم لا ينفعون المسلمين بإيمانهم، ولا يُغيظونهم بالتَّصلُّبِ في الكفر[1].

وفيه دلالةٌ على تقرير عدم استحقاق هؤلاء المُجرمين لإيتاء الهدى، ويكون المعنى: (ما يُؤمن بآياتنا الدالَّة على التَّوحيد وسائر المُعتَقَدات إلّا الذين إذا ذُكِّروا بها خرُّوا سُجَّدًا)[2].

نكتةُ التَّعبير بالمُضارع في: ﴿يُؤْمِنُ﴾:

تجدُّد الإيمان منَ الذين اهتَدَوا مع رُسوخِه

إيثارُ صيغة المضارع في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ﴾ دون الماضي المناسب لسياق الإيمان؛ لأنَّ المؤمنين قد حصل إيمانُهم فيما مضى؛ فكان التَّعبير بالماضي آثرَ بحكاية حالهم؛ لكنَّ القرآن جاء بصيغة المضارع ﴿يُؤْمِنُ﴾؛ لما تُشعر به من أنَّهم يتجدَّدون في الإيمان ويزدادون يقينًا وقتًا فوقتًا[3]، فالمُضارع دالٌّ على استحضار صورة إيمانهم الرّاسخ الثّابت الذي لا يتزعزعُ، بل يزداد قوَّةً ومتانةً حتَّى صاروا يُعرَفون به لتمسُّكِهم به.

سرُّ التَّعبير بالآيات دون غيرها وجمعها:

المؤمنُ يتَّبع جميع الآيات الإلهيَّة مع كثرتها وتنوُّعِها

آثر القرآن الكريم التَّعبير بالآيات في قوله تعالى: ﴿بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ دون غيرها كالمُعجزات باعتبار دلالتها على الحقِّ، فهي تشمل الآياتِ العقليَّةَ المنشورةَ في الكون، والآياتِ النَّقليَّةَ من المُعجزات ونحوِها، ولتشملَ آياتِ القرآن الكريم، والسّياقُ في الآية يُؤيِّدُ ذلك.

ودلَّ الجمع بـ(آياتنا) على كثرة الآيات وتنوُّعِها التي يجب الإيمانُ بها، والعمل بموجبِها، وقد يُضاف إلى ذلك عدمُ الفرق بين آيةٍ وآيةٍ، فهم يُؤمنون بكلِّ الآيات آيةً آيةً، وهذا فيه منَ الشُّمولِ ما فيه.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 227.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 15/ 266.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 227.

نكتةُ إضافة: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ إلى ضمير العظَمة:

تشريفُ الآيات وتعظيمُها وبثُّ المهابة في نفوس المُعرِضين عنها

في الإضافةِ ثلاثُ نكاتٍ: الأولى: تشريفُ تلك الآيات، فالمضافُ يكتسب كرامتَه ممّا أُضيف إليه، فقد أُضيفت الآياتُ إلى العظيم، فصارت عظيمةً لاقترانها بعظيم، والثّانيةُ: بيانُ المُناسبة بين الجمع (آيات) و(نا) العظمة، التي تستلزم الهيمنةَ والسَّيطرةَ والعظمةَ والقدرةَ الباهرةَ على إيجاد الآيات الكونيَّةِ، والثّالثةُ: إيرادُ نونِ العظمةِ لتربيةِ المهابةِ وإدخالِ الرَّوعة في قلوب مَن لم يُؤمنوا.

نكتةُ تقديم شبه الجملة: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾:

تخصيصُ الآيات وقَصْرها على المؤمنين حقًّا

أفاد تقديمُ النَّظم الكريم شبهَ الجملة ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدٗا﴾ التَّخصيصَ، فهؤلاء لن يُؤمنوا إلّا باللّه وآياتِه، ثمَّ في التَّقديم هنا إلماحةٌ إلى ذكرها مرَّتين في هذا السّياق، مرَّةً بالاسمِ الظاهر مُقترنًا بـ(نا) العظمة، وثانيةً بالضَّمير ﴿بِهَا﴾، وتأخيرُها عن موضوعها يُفوِّتُ هذه النُّكتةَ التَّركيبيَّةَ الشَّريفةَ.

دلالةُ التَّعبير بالاسم الموصول في ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

المدحُ وعلوُّ الشَّأن في الإيمان مع الرُّسوخ فيه

عبَّر النَّظم الكريم عن المُؤمنين بالاسم الموصول المُختصِّ بالعاقل في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدٗا﴾، بعد أن أتى بصيغة المُضارع المُشير إلى التَّجدُّد، مع أنَّهم عُرِفوا بالإيمان فيما مضى؛ لأنَّ الصِّلةَ الدّالَّ معناها على أنَّهم راسخون في الإيمانِ[1]، وكونُ الاسم الموصول مُختصًّا بالعاقل من شأنه أن يكون معهودًا لدى السّامع، ممّا يدلُّ على عُلوِّ الشَّأن[2]، ويُضاف إلى قيمة التَّعبير بالاسم الموصول الشَّوقُ إلى صلتِه وما تحويه.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 227.

(2) النورسي، إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز، ص: 34.

دلالةُ التَّعبير بالجملة الموصوليَّة:

رسـوخُ الإيمان وثـبـاتُـهُ في قلوبهم

الجملة الموصوليَّة أفادت المدح وعُلوَّ الشَّأن للمؤمنين، "فإتيانُ الموصول الماضي قُصِدَ به الالتباسُ والاستصحابُ"[1]، وفي ذكر الصِّلة والموصول تمهيدٌ وتوطئةٌ لذكرِ الجملة الشَّرطيَّة بعدَها.

وفي التَّعبير بجملة الصِّلة دلالةٌ على رُسوخِهم في الإيمان، حيثُ عبَّر عن إبلاغِهم آياتِ القرآن وتلاوتِها على أسماعِهم بالتَّذكير، وهذه الصِّفة التي تضمَّنتها جملةُ الصِّلة هي حالُهم التي عُرفوا بها؛ لقوَّة إيمانهم، وتميَّزوا بها عن الذين كفروا[2].

فائدةُ التَّعبير بالشّرط في قوله: ﴿إِذَا ذُكِّرُواْ﴾:

تحقُّقُ التَّذكير والصِّلة بالله تعالى

من سمات الظَّرف ﴿إِذَا﴾ الدَّلالةُ على التَّكرار وتحقُّق الوقوع[3]، وهذا يعني أنَّ التَّذكير مُستمرٌّ لا ينتَهي؛ كي تظلَّ القلوبُ مُتعلِّقةً بالله، وفي الأداة دلالةٌ على الرِّعاية والاهتمام، فالتَّذكير المُتواصلُ فيه إلماحةٌ إلى محبَّة الله العبدَ لمُواصلة الخرورِ والسُّجود.

دلالةُ التَّعبير بالجملة الشرطيَّة:

الإيـمـانُ بالله وإقامةُ العبادة له مُرتبطٌ بتذكير الله لعباده

في التَّعبير بالجملة الشَّرطيَّة: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا﴾ دلالةٌ على اتِّصال تعلُّق حصول الجواب (الخرور والسُّجود) بحصول الشَّرط ﴿ذُكِّرُواْ﴾ مع وجود التَّلازم بين الشَّرطِ والجواب[4].

سرُّ التَّعبير بالتَّذكير دونَ غيره:

الإشـارةُ إلى تـحـقُّـقِـهـم بمضمونِ المُذَكَّرِ به

آثر القرآن الكريم التَّعبير بالتَّذكير في قوله: ﴿إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا﴾؛ لأنَّ التَّذكير يقتَضي أنَّ ما تتضمَّنه الآيات حقائقُ مُقرَّرة عندهم لا يُفادون بها فائدةً لم تكن حاصلةً في نفوسهم، ولكنَّها تُكسِبُهم تذكيرًا، قال تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٥٥﴾ [الذاريات: 55][5].

---

(1) محمد عضيمة، دراسات لأسلوب القرآن الكريم القسم الثالث الجزء الأول، ص: 187.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 227.

(3) حسن طبل، بلاغة الالتفات، ص: 135.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 227.

(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 227.

وممّا يُذكر في سرِّ التَّعبير بالتَّذكير الإشارةُ إلى بعض النِّسيان الذي يعتَري النَّفس البشريَّة، لكن سُرعان ما تعودُ إلى حظيرة الإيمان.

نكتةُ بناء الفعلِ ﴿ذُكِّرُواْ﴾ لما لم يُسمَّ فاعلُه:

الاتِّساع في وقتِ ومكانِ تذكير المؤمنين

قصَدَ النَّظمُ الكريم من بناء الفعل: ﴿ذُكِّرُواْ﴾ إلى ما لم يُسمَّ فاعلُه الاتِّساعَ في الزَّمان والمكان والمُذكِّر، فالتَّذكير عامٌّ؛ أي: ذُكِّروا بها من أيِّ مُذكِّرٍ كان في أيِّ وقتٍ كان[1]، فالفائدةُ حاصلةٌ في نفوسهم، وهذه هي حالُهم التي عُرفوا بها؛ لقوَّة إيمانهم، وتميَّزوا بها عن الذين كفروا[2]، وعلى ذلك فالغرضُ من بناء الفعل التَّركيزُ على مسألة التَّذكير بوجهٍ عامٍّ.

دلالةُ التَّعبير بـ﴿خَرُّواْ﴾ مادَّةً وصيغةً:

سرعةُ التَّأثُّر بالتَّذكير والآياتِ والمُبادرةُ بالسُّجود

آثر القرآن الكريم التَّعبير بالخَرِّ في قوله تعالى: ﴿خَرُّواْ﴾ دون السُّقوط؛ لأنَّ التَّعبير بهذا الفعل فيه تنبيهٌ على اجتماع أمرَين: السُّقوطِ، وحُصولِ الصَّوت منهم بالتَّسبيح[3]، بخلاف السُّقوطِ؛ فإنَّه يدلُّ على طرح الشَّيء إمّا من مكان عالٍ إلى مكان مُنخفضٍ، وفي التَّعبير بـ﴿خَرُّواْ﴾ الدَّلالةُ على المُبادرة والإسراع، فكأنَّهم بادَرُوا إلى السُّجود مُبادرةَ مَن سقطَ من غير قصدٍ، خُضَّعًا للّه من شدَّةِ تواضُعِهم وخشيتهم وإخباتِهم له خضوعًا ثابتًا دائمًا[4]، وفيه إشارةٌ إلى تنزيههم عن التَّسويف بسبب ما نطقَت به الآياتُ منَ الوعدِ والوعيدِ[5]؛ فهم يُقبلون على الآيات دون تردُّدٍ أو تلعثُمٍ.

نكتةُ التَّعبير بـ﴿سُجَّدًا﴾ مادَّةً وصيغةً:

دلالةُ السُّجود على شكر النِّعم

آثر القرآن الكريم التَّعبير بلفظ ﴿سُجَّدًا﴾ دون غيرها؛ لأنَّ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 254.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 227.
(3) الراغب، المفردات، ص: 277.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 254.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل: 7/ 84.

السُّجود عبارةٌ عن التَّذلُّل لله وعبادته، وهو نوعان: سجودُ اختيار، وهو خاصٌّ بالإنسان، وبه يستحقُّ الثَّواب نحو قوله: ﴿فَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ وَٱعْبُدُواْ ۩ ﴿٦٢﴾﴾ [النجم: 62]، وسجودُ تسخير: وهو للإنسان والحيوان والنَّبات، وعلى ذلك قوله: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ۩ ﴿١٥﴾﴾ [الرعد: 15]، والآياتُ الدّالَّة على ذلك في القرآن كثيرةٌ.

ولأنَّ السُّجود يُطلق على الرُّكن المعروف منَ الصَّلاة وما يجري مجرى ذلك من سجود القرآن وسجود الشُّكر؛ لهذه المعاني آثر القرآن الكريم التَّعبير به مُناسبةً لسياق الآية، حيث وقعت لفظة ﴿سُجَّدًا﴾ حالًا مُبيِّنةً للقصد من ﴿خَرُّواْ﴾؛ أي: سُجَّدًا لله وشكرًا له على ما حَباهُم به من العلم والإيمان كما دلَّ عليه بقوله: ﴿وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾[1]، ففيه التَّواضعُ والخشوع لله تعالى.

وتدلُّ الصّيغةُ (فُعَّل) على الحركة الظّاهرة، وهي أبرز دلالاته، مع تكثير القيام بالفعل[2] ببنائه على التَّضعيف في العين، فكانت الحركة الظّاهرة مع كثرتها علامةً على التَّناهي في الخشوع والخضوع والتأثُّر بما يُتلى عليهم من آياتٍ عظيمةٍ.

سرُّ التَّعبير بجمع التَّكسير في قوله: ﴿سُجَّدًا﴾:

ثـبـاتُ وصـف السُّجود لهؤلاء المؤمنين

آثر القرآن الكريم التَّعبير بجمع التَّكسير ﴿سُجَّدًا﴾ دون جمع المذكَّر السّالم (ساجدين)؛ لأنَّه دالٌّ على وصفٍ ثابت لهؤلاء؛ فهم أهل السُّجود والتَّأثُّر؛ فجمع التَّكسير يميلُ إلى الاسميَّة والثَّبات، أمّا جمع المُذكَّر السّالم (ساجدين) فإنَّه يميلُ إلى الفعليَّة لا الاسميَّة، فجمع المُذكَّر السّالم يُشير إلى الحدث، أمّا جمع التَّكسير فيدلُّ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 228.
(2) فاضل السامرائي، معاني الأبنية العربية، ص: 135.

على صفةٍ ثابتةٍ لهم[1]، فكان الأولى التَّعبيرَ بجمع التَّكسير زيادةً في مدحهم وثبات موقفِهم وحرصِهم على الخرور سُجَّدًا دومًا.

دلالةُ التَّعبير بالواو في: ﴿وَسَبَّحُواْ﴾:

الجمعُ بين السُّجود والتَّسبيح من صفات المؤمنين

آثر القرآن الكريم التَّعبير بالواو في قوله: ﴿وَسَبَّحُواْ﴾ دون غيرها؛ لأنَّها دالَّة على مُطلق الجمع بين المعطوف والمعطوف عليه، فهي دالَّة على أنَّهم جمعوا معانيَ السُّجود والتَّسبيح؛ تبيانًا لهيمنة الذِّكر والتَّسبيح على حالتهم الظَّاهرة، ممّا يعني التَّأثُّر الشَّديد بما يُتلى عليهم من آياتٍ بيِّناتٍ، وكأنَّ أعظم الدَّرجات "استغراقُ قلوب العباد في درجات التَّنزيه ومنازل التَّقديس"[2]، وفي الواو الجامعة إشارةٌ إلى حال كاملي الإيمان وعُلوِّ شأن السُّجود والتَّسبيح والتَّحميد والتَّواضُع لعظمتِه ﷻ[3].

نكتةُ تقديم الخَرِّ على التَّسبيح:

دلالةُ الخَرِّ على الحركة غير الإراديَّة

قدَّم الخَرَّ على التَّسبيح في قوله تعالى: ﴿خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ﴾؛ لأنَّه انفعالٌ قهريٌّ لا دخلَ للعقل فيه ولا للتَّفكير، فالسّاجدُ يستطيع أن يسجُدَ بهدوءٍ ونظام، أمّا الذي يخرُّ فلا يُفكِّر في ذلك، وهذا أشبَهُ بقوله تعالى: ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: 26]؛ أي: سقطَ عليهم فجأةً، وهذا الانفعالُ يُسمَّى: انفعالًا نُزوعيًّا ناتجًا عن الوجدان، والوجدانُ ناتجٌ عن الإدراك[4]، ومن ثمَّ كان تقديم الخَرِّ على التَّسبيح أولى؛ لأنَّ التَّسبيح يخلو من هذا الانفعال القسريِّ، فكان في الخَرِّ وصفٌ للحالة النَّفسيَّة التي كانوا عليها ساعةَ سماع آياتِ التَّذكير.

(1) فاضل السامرائي، معاني الأبنية في العربية (بتصرف)، ص: 130 وما بعدها.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 27/ 480.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 139.
(4) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 15/ 9129.

سرُّ التَّعبير بالتَّسبيح: ﴿وَسَبَّحُواْ﴾ مادَّةً وصيغةً:

شـــأنُ أهـل الإيـمـان تـنـزيـهُ الله تعالى قولًا كان أو فعلًا

آثر القرآن الكريم التَّعبير بالتَّسبيح في قوله تعالى: ﴿وَسَبَّحُواْ﴾؛ لأنَّه يدُلُّ على تنزيه الله تعالى، وجُعل عامًّا في العبادات قولًا كان أو فعلًا أو نيَّةً، وآياتُ القرآن الدّالَّةُ على هذا ظاهرةٌ وجليَّةٌ؛ فمعنى (سبحان الله): تنزيهُ الله تعالى مُطلقًا عن كلِّ ما لا ينبغي أن يُوصفَ به، وهذا هو شأنُ أهل الإيمان في تنزيه الله تعالى قولًا كان أو فعلًا، ويُؤكِّد هذا التَّعبيرُ بالماضي الذي يدلُّ على رُسوخ صفة التَّسبيح فيهم، كأنَّها صارت صفةً من صفاتِهم.

سرُّ التَّعبير بالباء في قوله: ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾:

اتِّـصـالُ الحمد بـالـخُـرورِ من دون فاصلٍ

الباء في قوله تعالى: ﴿وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ دالَّةٌ على المُلابسة[1]، وهي دالَّةٌ على شدَّة الاتِّصال، فكأنَّ التَّسبيح والحمد كانا مُتلازمَين مُتلاصقَين؛ إلماحًا إلى كثرة ذكرِهم لله وتنزيهِه وتعظيمِه.

دلالةُ الجمع بين التَّسبيح والحمد وتقديمُه:

الإشارةُ إلى حالِ المـؤمـن ظـاهـرًا وباطنًا

جمع القرآن الكريم بين التَّسبيح والحمد في قوله: ﴿وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾، وذلك باعتبار الزَّمان المُمتدِّ المُتَّسع للتَّسبيح والحمد، أو لأنَّ الحمد باللِّسان والتَّسبيحَ بالقلب أو العكس، أو الحمد يتضمَّنُ التَّسبيحَ أو العكس، وقُدِّم التَّسبيح على الحمد من باب تقديم التَّخلية على التَّحلية؛ لذلك جُعل التسبيح أصلًا والحمدُ قيدًا[2].

نكتةُ إضافة الحمد إلى لفظ الرُّبوبيَّة في: ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾:

بـيـانُ قـيـمـةِ الحمد وشرفه

أُضيفَ الحمد إلى لفظ الرُّبوبيَّة في قوله تعالى: ﴿وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾؛ إظهارًا لشرف الحمد وفضله، والتَّرغيب فيه، مع كونهم مُوفَّقين لهذا الحمد من ربِّهم، فهو الدّالُّ عليه، وبتوفيقه حمدوا ربَّهم أعظم الحمد، فهو المُربّي الهادي إلى الخير، ثمَّ إنَّهم قد حازوا الشَّرفَ الأكمل بنسبتهم إلى ربِّهم.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 228.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 15/ 267.

فائدةُ التَّعبير بلفظ الرُّبوبيَّة في قوله: ﴿رَبِّهِمْ﴾:

بيانُ علَّة التَّسبيح والتَّحميد

جاءت لفظةُ الرُّبوبيَّة في قوله تعالى: ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾؛ للإشعارِ بعلَّةِ التَّسبيحِ والتَّحميدِ، وبأنَّهم يفعلونهما بمُلاحظةِ رُبوبيَّته تعالى لهم[1]؛ فالدّاعي إلى كثرة الذِّكر شعورُ هؤلاء المُؤمنين بحفظِ الله لهم؛ فجاء التَّسبيحُ والتَّحميدُ نتيجةً للحفظ والرِّعاية من ربِّهم.

نكتةُ إضافة لفظ الرُّبوبيَّة إلى ضميرهم: ﴿رَبِّهِمْ﴾:

بيانُ تكريمِهم وعلوِّ مكانتِهم

أضاف النَّظم الكريم لفظ الرُّبوبيَّة في قوله تعالى: ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ إلى ضميرهم تكريمًا وتشريفًا لهم، فالمُضافُ يكتسبُ عظمتَه أو خسَّتَه من المُضاف إليه، وقد أُضيفوا إلى ﴿رَبِّهِمْ﴾؛ إشارةً إلى علوِّ منزلتهم، وتمكُّن الإيمان والذِّكر منهم، وفيه أنَّهم يستحقُّون التَّربية التي تعني الحفظ والكلاءة من ربِّهم.

دلالةُ التَّعبير بالواو مع الجملة الاسميَّة:

بيانُ حالتِهم الثّابتة منَ التَّواضع والانكسارِ

جاءت الجملة الاسميَّة في قوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ۩﴾ مُقترنةً بواو الحال من الفعل ﴿خَرُّواْ﴾[2]؛ لبيان حالتهم، وهي التَّواضعُ والخضوعُ لله ﷻ، وأكَّد ذلك التَّعبيرُ بالجملة الاسميَّة الدّالَّة على الثَّبات والدَّوام وعدم الانفكاك عن التَّواضع، فهي حالتُهم الثّابتةُ التي تعيش معهم حِلًّا وترحالًا، فالتَّواضعُ صار طبيعةً وديدنًا لأمثالهم، وفي التَّعبير بها دلالةٌ على الدَّوام في عدم الاستكبار؛ لأنَّ الاستكبار عن الإيمان بالآيات كفرٌ.

فائدةُ توسُّط النَّفي بـ﴿لَا﴾ بين المُسند إليه والمُسند الفعليّ:

اختصاصُهم بالتَّواضع والتَّعريضُ بالكفّار

توسُّط النَّفي بـ﴿لَا﴾ في قوله: ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ۩﴾ لإفادةِ اختصاص المؤمنين بعدم التَّكبُّر؛ أي: دون المُشركين الذين كان الكبرُ خُلقَهم، فهم لا يرضَون لأنفُسهم بالانقياد للنَّبيِّ ﷺ منهم، وقالوا:

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 84.

(2) مكي، مشكل إعراب القرآن: 2/ 568.

﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ وَعَتَوۡ عُتُوّٗا كَبِيرٗا ٢١﴾ [الفرقان: 21][1].

دلالةُ التَّعبير بالمضارع المنفيِّ:

كمالُ تحقُّقِهم بالعبوديَّة

في التَّعبير بالمضارع المنفيِّ في قوله تعالى: ﴿لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ دلالةٌ على نفي تكبُّرهم في كلِّ زمان ومكان، فالمضارع يُفيد عدم تجدُّد الاستكبار؛ بسبب ثباتِ إيمانهم.

دلالةُ زيادةِ السّين والتّاء في نفي الاستكبارِ:

طلبُ الزّيادة منَ التَّواضع والإخباتِ

يأتي (تفعَّل) بمعنى: (استفعلَ) مثل: (تكبَّرَ واستكبرَ)[2]، غيرَ أنَّ زيادة الهمزة والسّين والتّاءِ في قوله تعالى: ﴿لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ تدلُّ على أنَّ بناء الفعل بناءُ مبالغةٍ، يدلُّ على الاجتهاد في الاستزادة منَ التَّواضع وعدم الاستكبار، فكأنَّهم يطلبونه طلبًا.

نكتةُ حذفِ مُتعلَّق الاستكبار في: ﴿لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾:

إفادةُ العموم والمُحافظةُ على رؤوسِ الآيِ

حذفَ النَّظم الكريمُ المُتعلَّق في قوله تعالى: ﴿وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾، فلم يذكر ربُّنا لا يستكبرون عن ماذا، ونكتةُ ذلك قائمةٌ في وصف حياتهم وشخصيّاتهم، وكأنَّ حياتَهم كلَّها تواضعٌ في تواضعٍ، فالعموم هنا هو المُسيطر على حالتهم، ويُضافُ إلى ذلك الأثرُ الكبير للتَّسبيح والسُّجود في التَّواضع وعدم الاستكبار، وفي هذا تعريضٌ بالمُستكبرين وذمٌّ لفعلهم، وممّا يُذكر في سرِّ حذف المُتعلَّق إضافةً لما سبق فائدةٌ لفظيَّةٌ تتعلَّقُ بالمُحافظة على رُؤوسِ الآي؛ فقبلَها: ﴿تَعۡمَلُونَ﴾، وبعدها: ﴿يُنفِقُونَ﴾، والجانبُ الصَّوتيُّ مهمٌّ للغاية في دلالة الحذفِ.

دلالةُ السَّجدةِ في هذه الآية:

قولُه تعالى: ﴿وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ موضعُ سجدةٍ من سجدات

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 228.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 2/ 315.

التَّخلُّقُ بأخلاق الصّالحين

تلاوة القرآن، فيها دعوة القارئ إلى التَّخلُّق بأخلاق الذين أثنى الله عليهم بأنَّهم إذا ذُكِّروا بآيات الله سجدوا؛ فالقارئُ عليه أن يقتديَ بهم[1].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 228.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع والأربعون،
سورة لقمان من الآية 21 إلى سورة الأحزاب الآية 25
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2025م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2025م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الرابع والأربعون، سورة لقمان من الآية 21 إلى سورة الأحزاب الآية 25
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2025.
مج. 44 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-97-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 44 : المجلد الرابع والأربعون، سورة لقمان من الآية 21 إلى سورة الأحزاب الآية 25.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-97-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4197137 بتاريخ 2025/01/02م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»